من كتب الشرق والغرب

LE HEROS DANS LA VALLEE HEUREUSE

ETIEMBLE

البطل فى الوادى السعيد[1]

يتكلم الناس اليوم عن الرور بقدر ما تكلموا عنه عام ١٩٤٤ ، ويبذل فى إعادة إنشائه من الجهد أكثر مما بذل فى تخريبه . ذلك لأن هذا الوادى سيبقى كأحد الأماكن التى يقرر فيها مصير حضارتنا . واد غنى وواد مهول ، واد بائس فى ذلك الوقت الذى كان يدعى — ويا لغرابة ذلك — وقت السلام . وأكثر بؤساً — لو كان هذا ممكناً — فى وقت الحرب المعلنة حين كانت القنابل المنهالة بالآلاف الأطنان تحتفر فيه آلاف الهوات المبتغاة . وكان طيارو الحلفاء ، الذين كانت تبحث عنهم فى يقظة القذائف والمدافع الثقيلة والمطاردات المعادية ، يطلقون عليه اسم الوادى السعيد .

كان جول روا Jules Roy ضابطاً ، ثم انضم مبادراً إلى حركة فرنسا المحاربة ، فطار فوق ألمانيا كثيراً ، أكثر من زملائه . وحقا لقد كان العمل فى القاذفات الليلية رهيباً حتى لقد كان سلاح الطيران الملكى يحل من كل ارتباط حربى أولئك الذين يبقون على قيد الحياة بعد الطيران الثلاثين : إذ ثبت لقيادة القاذفات بعملية حسابية بسيطة أن قليلا جدا من الطيارين من يعود بعد طيرانه عشرين مرة ذهاباً وإياباً . ولكن كما يعرف المقامرون ما يدعونه « بالخوارق » ، وهى مجموعة أرقام تفسد عليهم حسابهم ، كذلك كان لمكتب قيادة القاذفات « خوارقه » وهم قواد الطائرات والطيارون الذين يبقون أحياء بعد أن يطيروا عشرين مرة فوق المحور . ولما أتم جول روا مهماته الثلاثين بانتظام ، علم هذا « الخارق » من رؤسائه أن عليه أن يواصل عمله المهلك لنقص فى عدد الرجال . ورغم ذلك فقد رجع من الوادى السعيد ، رجع محطم الأعصاب . ولما عاودته قوته واتزانه

(١) كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

قص علينا حياة الطيارين . فبعد أن كتب « أناشيد وصلوات لبعض قائدى الطائرات » ، ألف كتابه « سماء وأرض » . و « سماء وأرض » هو أيضاً العنوان الذى اتخذته مجموعة الكتب التى يشرف عليها فى طبعة شارلوت Editions Charlot وقد أضاف إليها منذ قليل قصة عن تجربة « الوادى السعيد » . ونال هذا المؤلف جائزة تيوفراست رنودو Théophraste Renaudot الأدبية لعام ١٩٤٦ ، وهكذا أثبت محكمو جائزة رنودو مرة أخرى أنهم أسلم ذوقاً من محكمى جائزة جونكور Goncourt .

وشفرييه ، الطيار الأول والشخصية الأساسية فى « الوادى السعيد » ، شبيه كأخ شقيق بشخصية باتريس فى « سماء وأرض » . وباتريس وشفرييه ، كلاهما شبيه بجول روا . فهما كما جاء فى رؤية يوحنا : « لم يحبوا الحياة خشية من الموت » . أو كما قال جول روا : « كانت فكرة الموت الوشيك تفسد كل شئ » . ولو كان الطيارون أقل تأثراً ، لسحروا عدداً أقل من النساء ، ولكن فكرة الموت الوشيك تفسد عليهم كل شئ حتى هؤلاء النسوة المتأهبات . أكانت تفسد كل شئ ؟ كلا . فالاخوة فى الشجاعة والرجولة تسيطر على المشاعر جميعاً وتفلت من ذلك الفساد . وهذا التعاطف القاسى الذى تعبر عنه كلمات عسكرية خشنة ، والذى لا يعرفه إلا أولئك الذين يواجهون الموت معاً ، هذا التعاطف يفيض على هذه الأقاصيص إنسانية ؛ فهو وحده ، بين تلك الآلات الميكانيكية الشنيعة التى تكون الطيران فى أيامنا ، الذى يؤكد للطيارين أنهم ليسوا بآلات أوتوماتيكية . ففى وقت السلام ، كان يستطيع الطيار فى الطيران التجارى ، أن يحتفظ بذاتيته . « وكان المرء يلقى حتفه لأن إطاراً انفجر ساعة الرحيل أو لأن محركا احترق أثناء الطيران ، ولكن ذلك هو الذى كان يعطى للحياة قيمتها . » فقائد الطائرة وملاحها الجوى يعرفان أن شجاعتهما ومقدرتهما تواجه ضربات القدر وعناصر الطبيعة ، بقوى لا يمكن إهمالها . أما أثناء الحرب الهتلرية ، فلم يكن بين الطيار وبين الموت إلا قانون جاف من قوانين المتوسطات الحسابية ، أى نسبة مئوية معلومة من الخسارة ؛ فقد ولى ذلك الزمن ، زمن المبارزات الجوية بين المطاردات حيث كان يستطيع قائد الطائرة بشئ من المداورة ومن إحكام الهدف ، أن ينتصر ويخرج سليما . كان الانسان عندئذ سيد مصيره . أما اليوم

فنعلم ساعة الرحيل أن عدداً محدداً من الطيارين ، لا يزيد أو ينقص إلى اثنين أو ثلاثة ، لن يعودوا إلى قاعدتهم .

إذهب إذن وبيّن للمدنيين حياة الطيارين وظروفهم ! كتبت امرأة غبية إلى مورين ، صديق شفرييه : « أريد أن يكلل المجد هامتك » . فرد عليها مورين « أتتكلمين عن المجد ، إنه يعرفنا » . وذات يوم كانت إحدى الفتيات تهمس إلى شفرييه فى تبتل وذهول قائلة : « يا له من مرح ذلك الذى تستشعره وأنت تقذف برلين بالقنابل » . فلم يرد عليها « بل لم يرفع كتفيه » . ذلك لأنه مقتنع بأن أى شخص يستطيع أن يقع دون احتياط فى البطولة كما يقع فى بالوعة مفتوحة على حافة الافريز . قال لى مالرو Malraux ذات يوم أثناء حرب أسبانيا : « لقد رأيت فريقاً من أولئك الذين يدعون أبطالا ، رأيتهم فى الطيران . وهم جميعاً طفليون أو مصابون بداء الكذب » . أما أمام قيادة القاذفات فلم يكن هناك محل لأن يمثل الطيار دور البطل . فى كل صفحة نلقى الخوف « كان يدع ركبتيه ترتجفان . . . كان السهم يحتفر صدره وبطنه . جف عوده من الخوف وهو فى طائرته . . . أحس شفرييه فمه يمتلىء مرة أخرى بالمرارة . . . اختلج صوت المدفعى من الخوف والصراخ . . . كان شفرييه قد انغمر كالعادة فى لجة الفزع من التصادم . . . كل مساء يأتى يمزق أحشاءه . . . كنت خائفاً . . . الخ » الفزع ساعة الرحيل . الفزع من الطيران جماعات ، والفزع من الليل وكل الأنوار مطفأة والطائرة تحمل ستة أطنان من القنابل قد تنفجر فى أية لحظة ، كان شفرييه يلوم نفسه أحياناً على كل تلك المخاوف ، ولكنه فى الأغلب كان يتقبلها إذ أنه رغم ذلك لم يكن ليدع مكانه فى الطائرة بأى ثمن كان . « ولم يكن يدرى كيف يتخلص منها دون أن يفقد نفسه فى الوقت عينه . » استسلام لا أمل فيه . . . ويحدث فى أحيان قليلة قبل الهجوم مباشرة أن يعرف الطيار تلك الهنيهة من السلام العظيم ، سلام يعرفه أولئك الذين يحسون استعدادهم للموت ، وتلك هى البطولة الحقة ، بطولة من لا يحس بطولته بل يتهم نفسه بالضعف . رجال أبطال حقا ، أولئك الذين « كانوا يؤدون مهمتهم دون اندفاع ، ويكادون أن يؤدوها دون إيمان ، ذلك لان المهمة نفسها قد محت فيهم كل اندفاع وكل إيمان . » رجال يجدر بنا أن نفضلهم ،

لهذا السبب ، على القطيع الانسانى . وذلك الذى يقبل دون بغض ودون وهم « أن يواجه الموت القاسى ، موت قاذفات القنابل ، ماذا عليه لو لم يسيطر على بطنه أو على مثانته : ذلك الرجل هو البطل » . وتلك حال شفرييه .

لا أثر للاحتقار ولا أثر للكره فى حنايا نفسه . و إنه ليذكر عدوه القاتل النازى ، فى أشد ساعات القتال ، ويذكر طقطقة اللحم البشرى وهو يحترق فى طائرة المسرشميت . وهو يرثى له إذ يفنى فى سبيل قضية غير عادلة ، و يرثى له إذ لا يتقن مهمته إلا ضد الانسانية . وأما عن شفرييه فانه سيموت دون شكوى بشرط أن يصل «إلى سماء خاصة ، وأن يستنشق هواء خاصاً ، وأن يذوق خبزاً خاصا » ، هواء الحرية وسماؤها وخبزها . وترى شفرييه الضابط المحترف والذى كان كل شئ فيه يؤهله لكراهة الألمانى لكونه ألمانيا ، وللوطنية الضيقة الأفق ، وللخوف من الشعب ومن الطبقات الدنيا ، متحداً مع أعضاء المقاومة السرية ، وتراه يحس قدرته على محو قريته التى ولد بها وعلى اعتبار وطنه مقصوراً على البلاد التى بقيت حرة . « ففى اليوم الذى وافق فيه على محاربة فكرة ما ، قد وسع نطاق فكرته عن الوطن فعبر بها الحدود وخلصها من كل ما قد يحددها . وربما كان وطنى الحقيقى هو السماء لا الأرض ، كما قال لورين » ، صديقه الأسوأ منه حظا والذى مات فى إحدى ساعات الرحيل .

وهكذا نرى مزية هؤلاء الرجال ومزية هذه القصة . أهى قصة ؟ كلا ، ليست كذلك لو اعتبرنا « ثيسيوس » لأندريه جيد و«الباب الضيق» قصتين . ولا هى برواية رغم ما نراه فى بدئها من حبك روائى وما نلمحه فى ثناياها من عودة ظهور بعض الشخصيات ، وهى ليست مجموعة من الأقاصيص . ولاقصة حياة ذاتية (أوتوبيوجرافى) ، وليست مقالا ولا مؤلفاً أخلاقيا . ولنقل إنها كتاب فحسب . وإنى أفضل هذا الكتاب على كتاب « قواد الطائرات فى الحرب» الذى كتبه سانت إكسوبرى قبل موته . فلقد رأينا فى آخر كتاب سانت إكسوبرى صحائف مدهشة فى تفسير أسابيع الهزيمة فى يونيه ١٩٤٠ إذ يراها كأنها عقاب سماوى ، فكانت بهذا تردد روح الهزيمة الفيشية . أما شفرييه فانه يرفض ذلك الدين الذى ساد أيام بتان ، ويبدو له أن فيه مساساً بالإله : « فان الله لا يفضل شيئاً على شئ . . . ولا يعرف حقل الرجل العادل بمقدار ما فيه من سنابل ،

ولا تروى مياه السماء أرض المؤمنين فحسب » . وإنى لأعترف بأنى أحب هذه الصراحة النيرة . فالقيم الأخلاقية لا تختار كأسعار البورصة بقصد المضاربة (وليس من المهم أن تصعد أو تنخفض) .

وربما لم يكن فى «الوادى السعيد» مزايا الأسلوب التى تكثر لدى مؤلف «الطيران ليلا» . فلغة سانت إكسوبرى أكثر طواعية لارادته وأكثر حساسية من لغة جول روا ، وهى لهذا تستولى علينا بطريقة أيسر . ومن ذا الذى ينسى بسمة التجارة فى « خطاب إلى أحد الرهائن » ؟ وإن سانت إكسوبرى لا يبدو غامضاً عندما يؤكد لنا أنه مستعد للقتال عن طيب خاطر « لينقذ صفة ما فى بسمة البحارة ، صفة فى بسمتك وبسمتى ، وبسمة الخادمة، لينقذ معجزة تلك الشمس التى جاهدت كل ذلك الجهاد منذ ملايين السنين لتنتهى أخيراً بوساطتنا إلى هذه الصفة لبسمة ناجحة » . وإن ترتيب الكلمات هنا ليساعد على إبراز المشاعر . ومن هنا يجئ خطر هذه الميزة للاحتفاظ ، إذ أنها تستطيع أن تجعل للأفكار السيئة سلطاناً علينا . ولا شئ من هذا عند جول روا ؛ فلغته ليست عاطفية ، ونادراً ما تكون ضعيفة بعض الضعف (« فى ذلك المساء لم يكن جو القداس غير عادى ») وهى دائماً مساوية لأولئك الذين تقص حياتهم وموتهم .

ايتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

COMMENTAIRES AUTOUR D'UN GRAND LIVRE : LA PENSEE EUROPEENNE AU XVIIIe SIECLE

BERNARD GUYON

حول كتاب خطير

الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر[1]

فى صباح يوم من أوائل سنة ١٩٤٤ ، وفى باريس ذات الوجه العابس المكتئب ، باريس سنوات الحرب والاحتلال ، عندما أُنبئت أن بول هازار قد فاجأته المنية ، تولانى ذهول واغتمام ، وانتاب قلبى حزن عميق . شعرت أن فرنسا ربما لم تفقد بفقده « رجلا عظيما فذا » ، وعقلية ملهمة وهاجة ، من تلك العقليات التى تقلب أوضاع حياتنا وتحول مناهج تفكيرنا ، تحيط بها هالة من نور العبقرية ؛ ولكنها فقدت رجلا يندر أمثاله بين الرجال ، جديراً بالاعجاب « شريفاً » بكل ما يتضمن هذا اللفظ الجميل من معان فى اللغة الفرنسية : من أمانة هى أقصى ما تكون عليه الأمانة ، إلى تعلق بالحقيقة هو أشد ما يكون عليه التعلق بالحقيقة ، تلك الحقيقة التى فى سبيل السعى إليها والبحث عنها أنفق جل حياته . كان يعمل بعزم وكد لا يعرفان الفتور ، وكان متواضع الخلق ، معتدل الطبع ، بعيداً عن كل هوى حزبى ، صافى الذهن ، نافذ البصيرة ، على ثقافة واسعة كان لا يفتأ يزيدها وينميها . وموجز القول إنه من النفر الذين يرفعون شأن أوطانهم ، أكثر من العباقرة — وأغلب ما يصدر الشر عن العباقرة — ويعلون قدرها ، وينمون ثروتها لعقلية ، ويهيئون الفرص الجديدة لاستمرار كيانها ، وذلك بآثارهم التى يتكابدون المشاق وينفقون السنين فى إعدادها وإنشائها ، لا يسمع لهم صوت ، ولا يعلم أحد عنهم شيئاً .

وكان بول هازار — عندما مسه جناح الموت القاتم — قد بدأ يخرج من هذا الصمت وذلك الخمول ، ويذيع اسمه وينتشر فى الأوساط الفرنسية ويتجاوزها إلى بلاد العالم أجمع ، وقد فتحت له الأكاديمية أبوابها ، على

(١) كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

أثر كتاب أصدره هو غاية فى الإبداع عنوانه : «أزمة الضمير الأوربى فى القرن الثامن عشر» ، يتضمن آراء من شأنها أن تحدث انقلاباً فى بعض الاتجاهات والأهداف التاريخية المتوارثة ؛ ولكنه قبل ذلك بسنوات طوال ، كان قد احتل أرفع مكانة من قلوب الطلاب ، فرنسيين وغرباء ، يقبلون عليه فى ازدياد مستمر ، ويستشيرونه ويستمعون إليه كل الاستماع ، يكنون له غاية الحب ، مفتونين بعلمه الذى كان يعرف طريقه إلى القلوب ، مأخوذين بواسع معارفه التى لم تكن يوماً من الأيام سبيلا إلى العدوان ، معجبين بحرصه على أناقة الأسلوب وسحر العبارة ، ذلك الحرص الذى يندر أن يوجد بين كبار أساتذة الجامعة .

كنت واحداً من السعداء الذين كانوا يتزاحمون ساعين إلى محاضراته فى السربون حوالى ١٩٢٢ ، والذين كانوا فيما بعد يحدقون به داخل قاعات الكوليج دى فرانس ، حيث كان يخلو إلى نفسه ، طارحاً عن ذهنه كل تفكير فى الامتحانات والتحضير لها ، ويواصل بحوثه العلمية فى ذلك الطريق الجديد الذى اشتقه وفرنان بلدنسبرجيه حديثاً ، أعنى طريق الأدب المقارن . وكانت ندوته ، فى أيام الأحد ، ملتقى الشباب من فتيان وفتيات ، يأتون إليه من كل أنحاء العالم . ولست أعرف أحداً كانت أكثر بروزاً فى سلوكه منه تلك الصفة التى تعتبر على الرغم من بعض الظواهر ، لازمة من لوازم العقل الفرنسى ، أقصد القابلية للمؤثرات الخارجية .

كان أستاذا قديراً، وهذا أمر جدير بالذكر ؛ لأن القديرين من الأساتذة آخذون فى القلة يوماً بعد يوم . لم يكن « بليغاً » فى بلاغة كوزان أو حتى فى بلاغة برونتيير أو جول لميتر، بل كان يعنى أكثر ما يعنى بتكوين عقليات . كان حازماً جادا ، يجمع إلى الحزم والجد دعابة القول . لا يشعر سامعه مطلقاً بالسأم والضجر . وكنا نخرج من محاضرته ظافرين بالوفير الجديد من المعلومات ،مفعمين بالغبطةوالانشراح . وهو إن تميز بشئ فعلى الأخص بلباقته فى الإرشاد والتوجيه ، يسدى الضرورى من النصائح . ويجتنب العاثر من الخطوات ، ويتحاشى كل مسعى غير مجد ، وذلك فى رقة لفظ وعذوبة منطق ، من غير ما تهاون أو تسامح مرذول . يشحذ العزائم الواهنة ، ويحد من زهو المغرورين ، ويبعث الثقة فى قلوب الوجلين المترددين ، وكان

يعرف أيضاً كيف يقضى حاجة من هو فى حاجة إلى المادة فى تكتم وحذر . إن بول هازار لم يكن عقلا كبيراً فحسب ، بل كان أيضاً ذا قلب ذكى عظيم .

زرته قبل أن توافيه منيته ببضعة أيام ، ولم يكن هناك ماينذر بالفاجعة الوشيكة . لا شك أنه مثل غيره من رجال الفكر الفرنسيين قد أثرت فى أعماق نفسه مصائب قومه ، غير أنه كان يعلم أن لتلك المصائب نهاية قريبة . وكان صدره يجيش بالأمل ، شأنه فى ذلك شأن كل ذوى البصيرة من أبناء الوطن . وقد انتهز فرصة هذه السنوات التى اضطر فيها إلى السكون ، ليقبل على العمل بنشاط وحرارة كان لا يعهدها فى نفسه من قبل . وكان يتحدث إلى بحاسة الشباب عن مكتشفاته الحديثة فى تلك الميادين المظلمة من ميادين الفكر الصوفى فى القرن الثامن عشر ، التى شرع الآن يجول فيها . وقد أبدى لى على الأخص اغتباطه بانتهاء الجزء الثانى من تلك اللوحة الفنية الضخمة التى بدأ العمل فيها منذ عشر سنوات خلت ، والتى سيكون عنوانها : « حركة الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر » .

وها هو ذا الكتاب يظهر اليوم ، وقد وصل إلينا من فرنسا يثير فينا شعور الأسى والاعجاب معاً . وأريد الآن أن أقدمه فى كلمة وجيزة ، وأن أجلو المسائل العقلية الجليلة الخطيرة التى يريدنا أن نتأمل فيها .

قصد بول هازار فى هذه المجلدات الثلاثة (ومنها واحد للشروح ، والحواشى ، والأخيران للنصوص) . إلى دراسة تطور الحركة الفكرية فى أوربا ، مبتدئاً من حيث انتهى فى مؤلفه السابق ، أى من ١٧١٥ — تلك السنة التى انفجرت فيها « الأزمة » بعد أن ظلت طويلا مكبوتة كامنة — إلى الساعة التى أشرف فيها جيل جديد على الظهور ؛ليتجه ،عشية الثورة الفرنسية ، بالمسائل القائمة اتجاهاً غير اتجاهها ، ويحطم أصناماً غير التى حطمت ويعرض حقائق غير التى عرضت . فالمادة للمؤلف غزيرة مترامية الأطراف ، ومع ذلك فمؤرخنا يمتلك ناصيتها ، ويحيط بأشتاتها بسهولة تامة . وهو يظهر لنا بوضوح تاريخ الفكر فى هذه السنوات الستين ، عبارة عن قصة مجهود ضخم انتهى فى آخر أمره إلى إخفاق ذريع .

مجهود ضخم هو فى الوقت نفسه هدمى وبنائى . وعملية الهدم فيه منصبة على الدين المسيحى ، وكانت صيحة الهادمين : « لنسحق الرجس » . كلنا يعرف ذلك ، وتلك الظاهرة من تاريخ

هذا العصر ، معلومة لدينا أكثر من غيرها . ومزية بول هازار فى هـذا الجزء من كتابه ، أنه يجعلنا نحس ، بالناحية الفاجعة الحادة ، لهذا النزاع الفكرى البعيد المدى ، الذى لم يكن ، على حد تعبير الكاتب ، سوى « قضية الله » . ونجد ناحية طريفة أخرى فى كتابه ، هى أنه أخرج من الظلمة وخمول الذكر أولئك الذين طمستهم ظلما وجوراً عبقرية فولتير وديدرو وأمثالها ؛ لأنهم تولوا فى هذه القضية مهمة الدفاع ، نذكر منهم فريرون ، وباليسو ومن نهجوا نهجهما ؛ فقد بذلوا هم أيضاً جهداً محموداً ، لاينقصهم الذكاء ولا تعوزهم الشجاعة ولاتخذلهم حدة الذهن وسرعة الخاطر .

وعلى أية حال ، لايكفى أن تفصل الثوب وتقطع أجزاءه ، بل يجب أن تتم خياطته ؛ فماذا يستبدل بالمثل الأعلى المسيحى الذى رفض رفضاً نهائيا ؟ شرع الفلاسفة يبحثون عن مذهب إنسانى جديد ، مذهب إنسانى يكون الانسان فيه مركز هذا العالم ، ويقصى الله عنه إقصاء فعليا . لاهك أنه توجد أشكال متباينة للنظرية الالـهية ، غير أن هذه الأشكال كلها لا تجعل من الله إلا ذلك الكائن الأعلى القصى الذى لايهتم أدنى اهتمام بالأحداث الحقيرة التى تمر بهذا العالم الأرضى وهو ما يتخذه الدين الطبيعى إلـها له . إن هذا المذهب الانسانى الجديد يحصر جهوده ويوجهها نحو بناء مدينة للبشر ، وهو يستعين بالعلم لنشر السعادة فيها . فالعلم يفتح أمام الانسـان آفاقاً لا حد لها من الاحتمالات ، فنرى بوفون يضع الانسان فى موضع المركز من عالم يكون هـو ملكا عليه ، هذا فى حين يحاول مفكرون آخرون أن يبنوا الحق على أساس الطبيعة . ومؤلف « روح القوانين » الشهير له فى هذه المحاولة شأن عظيم . ويفكر غير هؤلاء فى مسائل الأخلاق ويخرجون من تفكيرهم بأن الأخلاق لابد أن تهدف كلها منذ اليوم إلى تحقيق السعـادة ، وهم يردون إلى اللذة والشهوة اعتبارهما بعد أن أفهمتنـا التعاليم المسيحية أن نحذرهما وأن نترفع عنهما . غير أن هؤلاء المفكرين يشيدون فى الوقت نفسه بالفضائل الجديدة من تسـامح ومحبة للبشر ، ويجهـدون أنفسهم فى سبيل تطبيـق نظرية الأخلاق الطبيعية فى العلاقات بين سكان المدينة نفسها ، ويحلمون بالعقود الاجتماعية ، فى الوقت الذى يمجدون فيه مبادئ الحرية والمساواة ، ويحيطون مبدأ الملكية بنوع من الاحترام هو أقرب ما يكون إلى التقديس . والأمر الأخير

الذى لا يقل تأثرنا به عن تأثرنا بغيره من هذه المشروعات الطموح الواسعة . أننا بينما نرى الملوك لا يفتأون يشتبكون فى حروب تافهة داميـة ، نجد رجال الفكر يرسمون الخطط لتشييد سلم دولى ، ويضع الأب دى سان بيير أسس أول عصبة للأمم .

يحشد بول هازار كل هذه الوقائع فى عدد من الفصول تمتاز بوضوحهـا وتركيزها ، وتبدو فيها فكرة البناء فى مجموعها عند هؤلاء المفكرين من رجال القرن الثامن عشر ، كوحدة متماسكة متناسقة ، من غير أن يتخذ الـكتاب لعرض ذلك صبغة الرسالة العلميـة الجافة . ثم يدرس المؤلف فى سلسلة من الفصول التكميلية ، ذيوع هذه الفكرة بفضل وسائل التعميم والنشر ، فينسب بطبيعة الحال شأناً عظيما لموسوعة ديدرو ودالمبير الشهيرة التى دارت حولها معارك حامية الوطيس .

وفى المجلد الثانى الذى يحتوى وحده على الجزء الثالث كله تحت عنوان « الانحلال » ، يتناول بول هازار مسألة الإخفاق الذى انتهى إليه هذا المجهود الضخم . ويبدو لى هذا الجزء أكثر طرافة وأمتن من أى جزء آخر ، كما يبدو لى أن الكاتب شاء أن يضمنه آراءه الخاصة تحت ستار الجمود الواجب على المؤرخ الذى يريد أن يقف بل هو واقف فعلا موقف الموضوعية من كتابه . وإن القارئ ليشعر من خلال بعض الصفحات اضطراب نفس قلقة تبحث عن الحقيقة . ويطلعنا المؤرخ ، من غير أن يحرف فى النصوص أو أن يحملها أكثر مما تحتمل ، ومن غير أى هوى وأى تعسف ، يطلعنا أو بالأحرى يبرهن لنا — وقد استحال فى نفس الوقت فيلسوفاً — على الصعوبات ، المعقدة التى كان يصطدم بهـا حلم الفلاسفة . وهو يرجع كل هذه الصعوبات إلى خطأ فى أساس فهم معنى كلمة « الطبيعة » . فهناك تعـارض بين الطبيعة والعقل نشأ عنه النزاع الهائل بين أصحاب المذهب التجريبى وأصحاب المذهب العقلى . وهناك تعارض بين الطبيعة والطيبة شجر عنه الخلاف حول طيبة الرجل الهمجى ومنافع أو مساوئ الحضارة . ونحن مدينون بقصة « كانديد » ، آية هذا العصر ، للعراك الذى احتدم بين أهل التفاؤل وأهل التشاؤم ، وهو واحد من أوجه النزاع الكبير بين فولتير وروسو . وهناك تعارض بين الطبيعة والحكومة الصالحة ، أدى إلى البدعة القائلة بالاستبداد المستنير . وهنـاك تعـارض بين

الطبيعة والحرية . ونجد مونتسكيو ، وقد بدأ على أساس تعريف للقانون يقوم على الجبرية ، يسائل : كيف يصل إلى نظام تسوده الحرية .

ثم يتابع بول هازار تحليله ويصور لنا مطالب رجل العاطف وموقفه إزاء هذا الجفاف البادى فى مثل أعلى فوق عقلى . ويتناول فى الفصول الثلاثة الأخيرة من مؤلفه الرائع المسألة الميتافيزيقية الأساسية ، فيظهر لنا ما كان من أمر ثلاثة من كبار الفلاسفة الإلهيين فى ذلك العصر : وهم : بوب ولسنج وفولتير ، وقد عجزوا عن أن يستبدلوا بالدين الذى يجدون فى هدمه ، ديناً آخر ، هو القدرية التى تدفعهم إلى مناهضة رجال الأكليروس مناهضة بلغت أقصى حدود السفالة ، وتذهب بهم إلى الإلحاد الصريح .

ونحن نرى من هذه النظرة التحليلية السريعة غزارة المادة فى هذا الكتاب . وأرجو أن أكون قد جعلت القارئ يلمس قوة التركيز والتأليف عند صاحبه ، والطريقة البارعة التى يمتلك بها ناصية مادته . أما الذى أرانى عاجزاً عن بيانه — مالم أستشهد بصفحات كاملة — فهى اللذة فى مطالعة الكتاب . وقد يبدو أحياناً أن هذه الصفحة أو تلك كلفت صاحبها عناء أكثر مما يجب فجاءت مهذبة فوق مايلزم . فالعيب الذى كان يخشى أن ينزلق إليه بول هازار هو المغالاة فى التأنق ، نتيجة الاهتمام المفرط برشاقة العبارة ، وقد وقع فى التجربة فكان يستجيب فى مؤلفه إلى هذا الإغراء . وكنا نود لو أنه أقلع قليلا عن أسلوب التكلف وأخذ أكثر بالأسلوب الطبيعى . غير أن من حقه علينا أن نبادر فنقول إن هذا العيب ليس فى الواقع إلا وجهاً واحداً لصفة نادرة تميز بها بول هازار ؛ فالعناية بتهذيب العبارة أصبحت من الندرة فى عصرنا إلى درجة أننا لا نستطيع أن نمر بدون حكم على هذه المآخذ الطفيفة .

والذى يجب أن نذكره قبل أن ننتهى من مديحنا هو ما امتاز به بول هازار من أمانة تامة فى الاستقصاء العلمى . وأخشى أن تفوت ملاحظة ذلك العدد الكبير من القراء الذين سيطالعون هذا الكتاب من غير أن يرجعوا إلى المجلد الثالث الخاص بالشروح والمراجع ، ويعتبر تكملة لا غنى عنها . ولا يسعنى إلا أن ألح فى توصية من سيثير فيهم مقالى رغبة الاطلاع على هذا الأثر ، أن يقتنوا كذلك المجلد الثالث . فهم لن يقتبسوا

منه درساً رائعاً فى منهاج النقد فحسب، بل سوف يقعون فيه على ذخيرة لاتفنى من الإرشادات النفيسة المتممة للبحث، كما سيجدون نقطة ابتداء تمهد لهم سبيل التعمق فى دراسة بعض المسائل التى عرض لها بول هازار، علهم يوفقون لحل جديد لها. وبمثل هذه البحوث المتصلة يتكوّن العلم، فالعلم ليس بالأمر الجامد المستقر. إن العلم يصنع صنعاً.

ويبدو لى أن لكتاب بول هازار، على ما أحيط به من مظاهر الوقار والجد الملازمة لكل مؤلف تاريخى، أقول يبدو لى أن لهذا الكتاب الذى يؤرخ لحركة الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر، قيمة عصرية حقة. ولهذا السبب فانى لا أعتبره أهم أثر أنتجه الأدب الفرنسى فى تلك الأشهر الأخيرة فحسب، بل أقوى الآثار تنبيها للفكر وتحريكا للعاطفة.

ومن واجبنا ألا ننكر على أنفسنا أننا لم نكد نتقدم البتة منذ مائة وخمسين عاماً وها هو ذا الفكر الأوربى مافتئ يواجه المعضلة نفسها: هل نستبدل بالمسيحية ديناً جديداً؟ أم نبعث فيها حياة أخرى؟ وإن عملنا على إزالتها فبماذا نعوضها؟ وإذا كانت الخطوب المروعة التى أوشكت أن تهدم مرح الحضارة الغربية إلى الأبد قد انتهت، فان المشكلة لا تزال قائمة كما هى، وعلينا نحن رجال اليوم تقع تبعة حلها على ضوء تجارب الماضى.

والكتاب يركز انتباهنا كله فى هذه المسألة الأساسية، غير أنه يثير أيضاً من المسائل الأخرى مالا نستطيع أن نقف إزاءه جامدين، فهو يقرب إلى أذهاننا ومشاعرنا تلك الحقيقة التى تدعى «أوربا». وليس الفكر الفرنسى هو موضوع الدراسة بل الفكر الأوربى. ولا بد أن يشعر الشاب الفرنسى عند قراءة هذا الكتاب بلذة هى لذة من يكتشف اكتشافاً حقا، وذلك يرجع إلى ما فى هذا الأثر من تغير فى وجهة التاريخ. وسوف يكوّن هذا الشاب لنفسه عن تاريخ بلده الفكرى آراء جديدة، لأنه سيجد هذا التاريخ ممزوجاً بتاريخ البلاد المجاورة يلقنه ويأخذ عنه فى الوقت نفسه، عن طريق محسوس أو غير محسوس، ولكنهما يكونان جزءا من حقيقة واحدة.

وسوف يشعر هذا الشاب بالغبطة و يملؤه الزهو عندما يدرك أن فرنسا وأوربا كانتا فى ذلك العصر تمتزجان فى ميدان الفكر امتزاجاً كليا؛ وللمرة الثانية من تاريخ الحضارة الأوروبية،

تشرف فرنسا على القارة كلها ، أما المرة الأولى فكانت فى تلك الفترة الباهرة التى تقع بين نهاية القرن الثانى عشر وبدايه القرن الثالث عشر ، والتى تعتبر بحق فترة إحياء ونهوض . ومما يثير فينا الاعجاب ، ويحبب هذه السيادة إلى قلوبنا على الأخص ، ويدعونا إلى الفخر بها جهرا ، أنها لم تشبها سيادة مادية ؛ فلا جيوشنا أغارت على أوربا ولا تجارنا غزوها ، بل رجال الفكر منا ورجال التربية ومتعهدو البساتين والطباخون فقط . وفى الوقت الذى كانت الهزائم المروعة تتلاحق على فرنسا ، الدولة الحربية البحرية المستعمرة ، وفى الوقت الذى كان فردريك الثانى ملك بروسيا ينكل بجيوشها فى روسباخ ، من الجميل حقا أن نرى أنوار المعرفة تنبعث منها كأسطع ماتكون ، وأن نرى فريدريك نفسه يجد غير لائق به أن ينظم شعراً لا يكون فرنسيا ، وأن نرى الأكاديمية التى أنشأها فى عاصمة ملكه قد اختارت لمباراة أدبية أقامتها موضوعاً عنوانه : « الأسباب التى تجعل من اللغة الفرنسية لغة جامعة عامة » .

ربما كنت قد أسهبت فى موضوع لايثير إلا اهتمام الفرنسيين ، فليغفر لى قارئى ذلك الإسهاب . أما بعد فليس موضوع مقالى إلا واحداً من موضوعات كثيرة يعرضها لنا هذا السفر النفيس مادة للتأمل . وإن هناك لموضوعات أخرى ليس إلى حصرها من سبيل ، ولكنى أرجو أن يكون ما ذكرت كافياً ليحفز القراء على مطالعته ، وهذا ماقصدت إليه من مقالى .

بناء جريدة

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم